مفهوم الثقافة .....مراجعة نقدية

أ.د. عبدالله محمد الأمين النعيم *

مقدمة

لكل لغة عقلها وإطارها الفكري الذي يعطي لمفاهيمها دلالات وظلالاً لا يمكن أن تتطابق مع لغة أخرى ، لذلك فإنّ "قضية المفاهيم والمصطلحات قضية هامة للغاية لم يعطها الكثير حقها من الاهتمام فتساهلوا في استخدام مصطلحات نحتها الغير من وجهة نظرهم فأوجد هذا حالة من التبعية الفكرية"[1] لا سيما في استخدام المصطلحات الحضارية فقد ظلت حالة الاستتباع لمفاهيم وقيم النموذج الغربي هي السائدة ، وهو نموذج يُطرح عالمياً باعتباره "النموذج البشري الأرقى للتطور البشري ينبغي على كافة الحضارات تكراره واحتذاؤه"[2].

من المعروف أنّ أي مصطلح لا يفرض نفسه على السطح" إلاّ إذا واكبته مكونات معيّنه توحي به وباستخدامه ، وغالباً ما تكون تلك هيّنه ليّنه في أول أمرها ، لتنمو وتزدهر حتى وإن كانت في صورة مضمرة ، حينئذ يأخذ المصطلح الصورة العلوية الظاهرة ليعبّر عن مضمون بدأ يسري حثيثاً ليظهر نفسه فيما نعرفه به ، إلا أن الأمر كان مختلفاً بصورة تكاد تكون تامة في حالة مصطلح الثقافة حيث إنّ المكونات توافرت منذ قديم الزمان إلاّ أن الكلمة ذاتها لم تظهر في مفهومها الحالي إلاّ إبّان حركة النهضة الأوربية"[3].

لقد حظيت الثقافة بمحاولات تعريف عديدة وخرجت كل محاولة لتعكس خلفية معيّنه عايشها صاحبها ، فمن الصّعب – إذن – تصوُّر ثقافة مجرّدة ومحايدة أي لا ترتبط بخلفيات تاريخية أو مذهب عقائدي أو ايديولوجيا لها فلسفتها في الوجود تقيم عليها تصوراتها . وعلى الرغم من ذلك فإنّ "الثقافة تعتبر على نحو ما متفقه بين المجتمعات وعلى نحوٍ ما مختلفة كذلك ، حيث هناك قدر كبير من التشابه بين الثقافات "تتفق الثقافات في العموميات وتختلف في التفاصيل"[4].

تشهد مسألة الثقافة أو بالأحرى مسألة الثقافات تجدّداً يجعل منها مسألة راهنة سواء على المستوى الفكري أو على المستوى السياسي . وعلى الرغم من أنّ مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم تناولاً إلاّ أنه من

---

* أستاذ باحث بمعهد إسلام المعرفة ،جامعة الجزيرة، ودمدني، السودان .

[1] أحمد صدقي الدجاني : التحيُّز في المصطلح ، بحث منشور ضمن بحوث ندوة "إشكالية التحيُز ، رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد" تحرير د. عبد الوهاب المسيري ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،ط2، امريكا 1996م ، ص 145.

[2] فؤاد السَعيد: التحيزات المعرفية في الرؤية الغربية الحديثة للعالم ، المصدر السابق ، ص 257.

[3] فضل الله مُحَمَّد إسماعيل : الايديولوجيا وفلسفة الحضارة ، ط1 ، مكتبة بستان المعرفة ، مصر 2005م، ص 155.

[4] ميكائيل تومبسون وآخرون : نظرية الثقافة ، ترجمة د. علي سيد الصاوي ، سلسلة عالم المعرفة (23) ، ط1 ، الكويت يوليو 1997م ، ص 8

أكثرها غموضاً حيث فاقت تعاريف المفهوم المائه وأربعه وستون تعريفاً كما احصاها كوبير وكلوكهون 1952م[5] وسوف نناقش في هذا البحث تلك التعاريف في بعديها الغربي والإسلامي.

1- الرؤية الغربية لمفهوم الثقافة:

1-1 نشأة المفهوم:

يرى دنيس كوش أنّ لفظة "ثقافة" ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر متحدرة من "Cultura" اللاتينية التي تعني العناية الموكولة للحقل والماشية وذلك للإشارة لقسمة الأرض المحروثة ، ثم تطورت في القرن السادس عشر لتدل على فعل هو فلاحة الأرض ، ولم يتكون المعنى المجازي إلاّ في منتصف القرن السادس عشر إذ بات ممكناً أن تشير كلمة "ثقافة" حينذاك إلى تطوير كفاءة أي الاشتغال بإنمائها[6].

وهذه الدلالة المتعلقة بتنمية الأرض ومحصولاتها هي ذاتها ما أورده وينر في قاموسه[7] ومعجم ويبستر الجديد الثالث[8]، كما أنّ اطلاق هذه اللفظة على عملية إنماء الأشياء المادية لم ينقطع كل الانقطاع إذ أنه يشيع الآن بنمو العلوم الطبية والصناعية[9].

2-1 التطور الدّلالي للمفهوم :

حدث التطور الدلالي الحاسم الخاص بالكلمة والذي سمح لاحقاً بابتداع المفهوم داخل اللسان الفرنسي في عصر الأنوار قبل أن ينتشر بواسطة الاقتراض اللساني داخل اللسانين المجاورين (الانجليزي والبريطاني). ويعتبر القرن الثامن عشر هو القرن الذي بدأت فيه كلمة ثقافة تفرض نفسها في معناها المجازي ، وبهذا المعنى تم إدراجها في قاموس الأكاديمية الفرنسية نشرة (1718م) وهي في أغلب الأحيان متبوعة بمضاف يدل على موضوع الفعل، هكذا كان يقال "ثقافة الفنون" ، "ثقافة الآداب" و "ثقافة العلوم" كما لو كان ضرورياً أن يحدّد الشيء المعتنى به تثقيفاً[10].

تحررت "ثقافة" من متمماتها المضافة وانتهت إلى استعمالها منفردة للتدليل على "تكوين" الفكر و "تربيته" لاحقاً ، وتمّ المرور من "ثقافة" بوصفها فعلاً "فعل التعلُّم" إلى الثقافة "بوصفها حالاً" ، "حال الفكر وقد أخصبه التعليم ، حال الفرد ذي الثقافة" ، وقد تكرّس هذا الاستخدام في منتهى القرن الثامن عشر في قاموس الأكاديمية الفرنسية نشرة (1798م). وكان مفكرو الأنوار يتصورون الثقافة بوصفها

---

[5] Krobeir and kluckhon, Culture: Acritical of Conception and Definition, Harvard 1952.

[6] دنيس كوش : مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، ترجمة د. منير السعداني ، المنظمة العربية للترجمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، مارس 2007م ، ص 17.

[7] Winer, Philip ed: Dictionary of the History of ideas, Charles Scribners Sons ,New york 1973.

[8] علوي الصافي: تعريف الثقافه ومفهومها، مجلة الفيص العدد 143، السعودية ، الرياض، ديسمبر 1989م ،ص7 – 8.

[9] قسطنطين زريق : في معركة الحضارة ، ص 33.

[10] كوش : مفهوم الثقافة ، ص 17 – 18.

خاصية مميزة للجنس البشري ، لقد كانت بالنسبة إليهم جملة المعارف التي راكمتها الإنسانية خلال تاريخها ونقلتها منظوراً إليها على أنها كلية[11].

ظهرت ثقافة "Kultur" بمعناها المجازي في اللسان الألماني في القرن الثامن عشر وبدت أنها نقل حرفي للفظ الفرنسي ، وعلى الرغم من ذلك تطورت كلمة ثقافة "Kultur" سريعاً نحو منحى أكثر حصراً من نظيرها الفرنسي وحازت منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر نجاح صيت حيث لم تكن ثقافة "Cultur" حظيت به باعتبار فوز "حضارة" بسبق الشهرة ضمن معجم المفكرين الفرنسيين[12]. حيث عمد الفرنسيون إلى استخدام "Culture" باعتبارها حضارة، وكما يرى تيري إيجلتون في تتبعه لتحولات العلاقة بين الثقافة والحضارة في رؤية الفرنسيين والألمان أنّ "الحضارة فكرة فرنسية إلى حد بعيد حيث كانت تشير في آن معاً إلى كل من التهذيب الاجتماعي في سيرورته التدريجية والغاية الطوباوية التي تمتد نحوها هذه السيرورة وفي حين كانت الحضارة الفرنسية تشتمل بصورة نمطية على الحياة السيّاسية والاقتصادية والتقنية فإنّ الثقافة الألمانية كانت ذات مرجعية دينية وفكرية فنية أضيق ، كما كانت تشير إلى التهذيب الفكري لجماعة من الجماعات أو فرد من الأفراد وليس للمجتمع ككل وفي حين كانت الحضارة تقلل من أهمية الفوارق القومية فإنّ الثقافة كانت تسلّط عليها الضوء ، والحال أنّ التوتر بين الثقافة والحضارة قد كان أمر وثيق الصّلة بالتنافس بين فرنسا والمانيا[13].

إنّ التطور الدلالي الحاسم للثقافة وابتداع المعنى العلمي للمفهوم ظهر بصورة جلية لدي الاثنولوجيين والانثروبولوجيين ، فقد اكسب مؤسسوا الأثنولوجيا مفهوم الثقافة محتوى وصفياً خالصاً ولم يعد الأمر يتعلق بالنسبة إليهم كما كان الشأن عند الفلاسفة بتحديد ما على الثقافة أن تكون عليه بل وصف ما هي عليه كما تتبدى في المجتمعات الإنسانية ، ومن جانب آخر فإنّ الانثروبولوجيا كادت أن تتملك الثقافة وتجعل منها امتيازاً للعلم لها، وتتحول إلى العلم الذي يتحدث باسمها وعنها وحولها وذلك على خلفية أنّ الثقافة هي من مكتشفات الانثربولوجيا ... بالعودة إلى العقل البدائي والمجتمعات البدائية ومحاولة البحث عن جذور الثقافة وبداياتها وكيف تنشأ وتنمو وتتطور؟ وتجيب على سؤالنا لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟[14].

يعتبر عالم الانثربولوجيا إدوارد تايلور أول من قدّم تعريفاً علمياً للمفهوم فقد عرّف الثقافة بقوله "إنّ (ثقافة) أو (حضارة) موضوعه في معناها الاثنولوجي الأكثر اتساعاً هي هذا الكل المركّب الذي

---

[11] كوش : مفهوم الثقافة ، ص 18.

[12] كوش : نفس المصدر ، ص 20 – 21.

[13] تيري إيجلتون : فكرة الثقافة ، ترجمة ثائر ديب ، دار الحوار ، اللاذقية 2000م ، ص 29 ، وأنظر زكي الميلاد ، المسألة الثقافية ، ص 91.

[14] زكي الميلاد : المسألة الثقافية ... من أجل بناء نظرية في الثقافة ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، الدار البيضاء ، المغرب 2005م ، ص 128.

يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع"[15]. فالثقافة على هذا الأساس بالنسبة لتايلور – تعبرّ عن كلية حياة الإنسان الاجتماعية وتتميز ببعدها الجماعي ، والثقافة مكتسبة ولا تتأتى من الوراثة البيولوجية ، بمعنى أنّ الثقافة هي عملية اكتساب عبر وسائط التربية والتعليم والتنشئة وعبر جميع طرائق التواصل الاجتماعي وليست عملية انتقال فطري أو غريزي . وكونها كلُ مركب يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والعرف والقانون فهذا يعني أنّ الثقافة ليست علماً لأنها لو كانت علماً لتضيقت وتحدّدت في نطاق ذلك العلم وبصورة لا تخلو من صرامة[16].

تدور غالب تعريفات علماء الاجتماع حول تعريف تايلور حيث نجد أنّ رالف لنتون يرى أنّ الثقافة "هي النمط المميز للحياة التي يعيشها المجتمع أي أنها شكل متكامل من السلوك المكتسب ونتائجه أي مجموعة الأفكار والعادات التي تعلمونها ويشتركون فيها وينقلونها من جيل إلى جيل آخر بما فيها العنصر المادي"[17] والثقافة عند كلايد كلوكهون هي "مجموعة طرائق الحياة لدى شعب معيّن ، أي الميراث الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد من مجموعته التي يعيش فيها ، أو هي الجزء الذي خلقه الإنسان في محيطه أو هي المواد والأدوات"[18].

ومن أبسط تعريفات الثقافة وأكثرها وضوحاً تعريف أحد علماء الاجتماع المحدثين روبرت بيرستد الذي ظهر في أوائل الستينات حيث عرّفها بقوله "إنّ الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه أو نقوم بعمله أو نتملكه كأعضاء في مجتمع"[19]ويبرز هذا التعريف الصيغة التأليفية للثقافة لتصبح ظاهرة مركبة تتكون من عناصر بعضها فكري وبعضها سلوكي وبعضها مادي[20] غير أنه يكفي القول بأنّ هناك اتجاهين يتنافسان في تعريف الثقافه.

أحدهما: ينظر للثقافة على أنها تتكون من القيم والمعتقدات والمعايير والتفسيرات العقلية والرموز والايديولوجيات وما شاكلها من المنتجات العقلية. وهذا الاستخدام يسود بين علماء السياسة[21]. أما **الاتجاه**

---

[15] E.B.Tylor: Primitive Culture, Brentanos, New1924 York .

[16] كوش : مفهوم الثقافة ، ص 31 ، والميلاد : المسألة الثقافية ، ص 135 – 137.

[17] رالف لنتون : الانثربولوجيا وأزمة العالم الحديث ، ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية ، بيروت 1967م ، ص 144 – 148 ، وكذلك كتابه : الأصول الحضارية للشخصية ، ترجمة عبد الحميد اللبان ، دار اليقظة العربية ، بيروت ، 1964م ، ص 58 – 60.

[18] كلايد كلوكلهون : الإنسان في المرآة ، علاقة الانثروبولوجي بالحياة المعاصرة ، ترجمة د. شاكر مصطفى ، المكتبة الأهلية ، بغداد 1964م ، ص 24 ، 37 ، 49.

[19] R.Bierstedt, The Social order, New , 1963. hill Mcgraw York

[20] تومبسون وآخرون : نظرية الثقافة ، ص 10.

[21] أنظر على سبيل المثال Gabriel A. Almond and Sidney verba: The Civic Culture: Political Attitudes and Demo cracy in Five Nation, Princeton university press 1963.

الآخر فيرى أنّ الثقافه تشير إلى النمط الكلي لحياة شعب ما ، والعلاقات الشخصية بين أفراده وكذلك توجهاتهم وهذا التعريف هو ما يميل إليه علماء الانثربولوجيا الأمريكيين وهو مفهوم شامل للثقافه[22].ولقد استمد تومبسون وزملاؤه من هذين التعريفين ثلاثة مفاهيم تمثل الثقافة في نظرهم وهي : التحيزات الثقافية والعلاقات الاجتماعية وأنماط وأساليب الحياة.وواضح أنها ظواهر أو عناصر مرتبط بعضها بالبعض في الكل المركب للثقافة، فالتحيزات الثقافية تشمل القيم والمعتقدات المشتركة بين الناس والعلاقات الاجتماعية تشمل العلاقات الشخصية التي تربط الناس بعضهم بالبعض الآخر، أما نمط الحياة فهو الناتج الكلي المركب من الانحيازات الثقافية والعلاقات الاجتماعية[23]. ولا تخرج دراسات بوا ودوركايم ومالينوفسكي وليفي ستروس بمدارسهم : التطورية والانتشارية والبنيوية عن ما سبق ذكره من تعريفات.

ويلاحظ الدارس لمفهوم الثقافة في دراسات الغربيين أنّ الانثربولوجيا كادت تتملك الثقافة وتجعل منها امتيازاً للعلم لها وتتحول إلى العلم الذي يتحدث بإسمها وعنها وحولها ، وذلك على خلفية أنّ الثقافة من مكتشفات الأنثربولوجيا... العودة إلى العقل البدائي والمجتمعات البدائية ومحاولة البحث عن جذور الثقافة وبداياتها وكيف تنشأ وتنمو وتتطور؟ وتجيب على سؤالنا لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟[24].

وقد استلهم فلاسفة العلوم تلك التعريفات الأنثربولوجية للثقافه وبنوا عليها معارفهم على الرغم من أن كروبر يرى بأنه لم يتم التوفق إلى وضع تعريف نهائي لطبيعة الثقافة[25]. ولكن بقياس الفارق الزمني بين رأي كروبر (1952م) وتطور العلوم نلحظ أنّ مفهوم الثقافة قد كاد يستقر على أنها :قيم ومعتقدات ومعايير وتفسيرات عقلية ورموز وايديولوجيات وما شاكلها من منتجات عقلية تشكل نمطاً كلياً لحياة الجماعة أو أسلوب للحياة. ومما لا شك فيه أنّ التفكير في مفهوم الثقافة قد تعمق لدى تركزه في دراسة الثقافات المفردة ودراسة المبادئي الكونية للثقافة.

إنّ من الجدير بالملاحظة أنّ هذه المعاني لمفهوم الـ "Culture" الغربي قد جرى تسويقها في العالم فيما يعرف بعملية الانتشار الثقافي أو التثاقف والمثاقفة ، وهذا التثاقف أو المثاقفة يترتب عليه حدوث تغيُرات في الأنماط الثقافية الأصلية في إحدى الجماعتين ، وفي الغالب تكون الثقافة الغربية هي المفروضة باعتبارها ثقافة المركز وغيرها الأطراف والهامش[26]. وقد أنشأ مجلس الولايات المتحدة للبحث في العلوم الاجتماعية لجنة لدراسة ظواهر التثاقف من هرسكوفيتس ورالف لنتون وروبرت ريدفيلد حيث عرّفوا التثاقف بأنه "هو مجموع الظواهر الناتجة عن تماس موصول ومباشر بين

---

[22] أنظر على سبيل المثال Ruth Benedict, Patterns of Culture

[23] تومبسون وزملاؤه : نظرية الثقافة ، ص 31 وما بعدها.

[24] الميلاد : المسألة الثقافيه ، ص 128.

[25] Alfred Louis Kroeber: The Nature of Culture. Chicago, university of Chicago press 1958.

[26] أنظر: أنور عبد الملك : تاريخ الشرق، ط1، دار المستقبل العربي ، القاهرة 1983م ، ص 34 – 41.

مجموعات أفراد ذوي ثقافات تؤدي إلى تغيرات في النماذج الثقافية الأولى الخاصة بإحدى المجموعتين أو كليهما"[27]

2- مفهوم الثقافة في الرؤية الإسلامية:

2-1 نشأة المفهوم:

لم تكن لفظة "الثقافة" من الكلمات التي حظيت باهتمام في الثقافة الإسلامية ولم ترتبط بقضايا أو خبرات أو مجالات أو معارف تستدعي الانتباه لها والاهتمام بها ، لهذا فقدت كلمة الثقافة الشروط والمقتضيات المعرفية والاجتماعية التي كان بإمكانها تحريكها والدفع بها نحو تطورات وانتقالات مفاهيمية[28]، فقد تطور وتحددّ مفهوم "الثقافة" في إطار العلوم الاجتماعية وأصبح وثيق الصلة بها وهي علوم حديثة ، لذلك يمكن القول أنّ الكتابات العربية اكتفت بالحديث عن المعاني والدلالات اللغوية للثقافة كما تحددّت ووصلت إلينا في معاجم اللغة العربية، أما الدلالات الاصطلاحية والمفهومية فيرجع فيها إلى الكتابات الغربية بمعنى أنها لم تتطور من عالم الكلمة إلى عالم المفهوم[29].

يرى زكي الميلاد أنّ هناك جملة من الأسباب التي تفسّر عدم تطور "الثقافة" من كلمة إلى مفهوم في اطار الثقافة الإسلامية حيث لخصها في الآتي[30]:

1- لم ترتبط الثقافة بخبرات أو معارف أو مجالات تستدعي الاهتمام بها ، لهذا افتقدت كلمة الثقافة الشروط المعرفية التي تدفع بها نحو تطورات وانتقالات مفاهيمية.

2- إنّ الفعل "ثقف" الذي هو مصدر الثقافة ارتبط في النص القرآني والمعاجم في جميع استعمالاته بسياق واحد وتحدّد بمعنى واحد أيضاً حيث جاء في سياق الحديث عن الحرب والقتال ، وتحدّد بمعنى الإدراك والظفر والمقصود بالإدراك هنا الوصول إلى الشئ بالمعنى الحسي والوجودي وليس بالمعنى الذهني.

3- إنّ المعاني والدلالات تحدّدت في معاجم اللغة العربية لكلمة ثقافة ظلت جامدة وساكنة ولم تبرح مجال اختصاصها ولم يكن بامكان اللغة تطوير هذه الكلمة والارتقاء بها إلى مرحلة المفهوم وليس هذا من اختصاصها ايضاً.

4- إنّ عدم تبلور العلوم الاجتماعية في اطار الثقافة الإسلامية ما قبل عصر ابن خلدون كان سبباً منهجياً ومعرفياً في عدم اكتشاف وبناء مفهوم الثقافة التي عُرفت وتحددت وتطورت في نطاق هذه العلوم.

---

[27] دنيس كوش : مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، ص 93.

[28] الميلاد : المسألة الثقافية ، ص 15.

[29] نفس المصدر ، ص 14.

[30] نفس المصدر ، ص 15 – 21.

إنّ المعاني العربية لكلمة الثقافة كما حدّدها القرآن وقواميس اللغة العربية دارت مضامينها حول إدراك الشئ والاحاطه به والحذق والفهم والضبط لما يحويه ، والقيام به ، وكذلك تعني ذكي ، فطن ثابت المعرفة بما يحتاج إليه ، كما تعني التهذيب والتقويم والتسوية بعد إعوجاج[31]، ولقد تضافرت الآيات القرآنية على هذه المعاني ، فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:{ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} سورة البقرة ، آية 191. {فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ} سورة النساء ، آية 91. وقال: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ} سورة آل عمران ، آية 112. وقال: {مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا} سورة الأحزاب ، آيه 61..

قيل في تفسير هذه الآيات إجمالاً "يقال ثقف يثقف ورجل ثقف اثقف إذا كان محكماً لما يتناوله من الأمور . تثقفهم تأسرهم وتجعلهم في ثقاف ، أو تلقاهم بحال ضعف تقدر عليهم فيها وتغلبهم ثقفتهم أثقفته ثقفاً أي وجدته، وفلان ثقف لقف أي سريع الوجود لما يحاوله ويطلبه ، والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة ومنه رجل ثقف سريع الأخذ لأقرانه[32].

إنّ الثقافة في سياقها القرآني وإن كانت تتعلق بالحرب إلاّ أنها في معانيها تعني مطلق التهذيب والتقويم والسّعي نحو الظفر بالشئ بما يؤدي لأن يكون الإنسان فطناً ذكياً ثابتاً في معرفته بما يحتاج إليه. كما أنّ الثقافة بمعانيها تلك تنبع من الذات الإنسانية ولا يغرس فيها من الخارج كما هو في لفظ "Culture" الغربي.

2-2 التطور الدّلالي للمفهوم:

كما سبق أن ذكرنا فإنّ كلمة "ثقافة" في الرؤية الإسلامية لم تتطور وتتحدّد لعدم ارتباطها بمجالات أو معارف تستدعي الانتباه لها ، ولم يتأتى تحريكها وتفعيلها في العلوم إلا بعد الاحتكاك بالثقافة الأوربية الحديثة ؛ وليس في ذلك تقليل من شأن علوم السلف الإسلامي لأنّ لكل عصر مفاهيمه ومصطلحاته التي تحرك واقعه وتصوغ علومه ... والمشتغلون الآن في العلوم سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين هم أسرى ثقافة عصرهم بمفاهيمه ومصطلحاته الحضارية ولا ضير أن يتم الاستمداد - من - والتثاقف مع الثقافة المعاصرة لبناء المفاهيم والعلوم الإسلامية. وإبتداع مفاهيم إسلامية حديثة هو ابتداع في الشكل والمسميات وليس ابتداعاً في الجوهر أو المضمون لأنه حسب رأينا أنّ المحتوى والمضمون كان موجوداً في كتابات علماء السلّف المسلمين حيث أنهم كتبوا في كافة المجالات بمفاهيم عصرهم .كما ذكرنا أنّ لكل لغة عقلها واطارها الفكري الذي يعطي لمفاهيمها دلالات وظلال لا يمكن أن يتطابق مع لغة أخرى ... والثقافة كلمة إسلامية أصيلة غير أنه لم يتم تشغيلها كمفهوم في علوم السلّف من

[31] ابن منظور : لسان العرب ، ج10 ، مادة ثقف ، والقاموس المحيد ، ج3 ، مادة ثقف ، والمعجم الوسيط ، ص 98.
[32] القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج1 ،ج2 ، ص 351.

المسلمين وإن كان محتوى المفهوم ومضمونه المعاصر قد جرى تشغيله في علوم السلّف بمسميات أخرى.

إذا حاولنا تتبع مفهوم الثقافة في الكتابات العربية والإسلامية المعاصرة فإنّ أكبر مؤسستين للفكر العربي والإسلامي قد عرّفتا الثقافة ، فقد عرّفتها المنظمة العربية للثقافة والعلوم في خطتها الشاملة للثقافة العربية بأنها:

أ – الثقافة بالمعنى الأنثربولوجي الذي يشمل كل فاعلية للإنسان تميزه عن أفعال الطبيعة فكل نشاط ذهني أو مادي يقوم به لرفض التقبُّل السلبي للطبيعة هو ثقافة اعتباراً من أبسط السلوك للإنسان البدائي حتى إنسان العصر الإلكتروني فالثقافة بهذا الشكل الواسع هي الإنسان بوصفه فاعلاً منفعلاً. ويدخل فيها كل ما أنتج البشر في الحياة من إنتاج مادي أو غير مادي سواء كان تراكم خبرات أم ممارسات فكرية أم تصورات من عقائد روحية، أم من صنع أداة من الأدوات أم تقليداً من التقاليد.

ب– الثقافة بالمعنى المرتبط بنوع الأساليب وأشكال القيم التي يبتكرها الإنسان ليكسب إنسانيته معناها الخاص. وينظم بها حياته الخاصة الاجتماعية والفكرية والروحية والجمالية وفي هذا السياق فالثقافة تشمل مجموع النشاط الفكري والفني بمعناهما الواسع وما يتصل بهما من المهارات أو يعين عليهما من الوسائل فهي موصولة الروابط بجميع أوجه النشاط الاجتماعي الأخرى مؤثرة فيها متأثرة بها معينة عليها مستعينة بها[33].

أما الإستراتيجية الثقافية التي أقرتها منظمة المؤتمر الإسلامي فقد أوضحت أنّ الثقافة هي[34]:-

1- التعليم والإدراك وتختص عند أهل العصر بالتربية التي تنمو بها أساليب التفكير والعمل بما يلائم الزمان والمكان، فالثقافة إذن مفهوم آلي "ديناميكي" يراد منه تخصيب للمدارك بالإطلاع واستثمار للمعرفة بالتخمين والتدبير والسعي.

2- الثقافة حصيلة معلومات متراكمة؛ وأساليب في التفكير تتسع وتضيق بحكم ارتباطها بقضايا الإنسان عموماً.

3- الثقافة في مفهومها الذي ينسجم مع المنهج الإسلامي هي التعبير عن الرقي والتقدّم في مختلف جوانب الحياة البشرية ومجالاتها المختلفة وإبراز ما يبدعه الإنسان من خلال خصائصه الكامنة

---

[33] المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون : الخطة الشاملة للثقافة العربية ، ص 42 ، سلسلة المفاهيم ، حزمة رقم (1) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، أمريكا.

[34] مجلة التوحيد العدد 86 ، السنة (15) رمضان 1417هـ "شباط 1997م" مؤسسة الفكر الإسلامي والتوحيد للنشر الثقافي ، طهران ، مقال: الثقافة الإسلامية ، المفهوم والمضمون ، أجزاء من مشروع الاستراتيجية الثقافية الذي أقرته منظمة المؤتمر الإسلامي ، ص 184 – 189.

فيه من فكر وسلوك يتواكب مع الواقع الذي يعيشه الفرد والمتمتع وفق مضامين ومعايير إسلامية تنبع من العقيدة الإسلامية الخالصة.

ويذهب بعض الباحثين إلى أنّ الثقافة هي مجموع القيم والمفاهيم التي تحكم سلوك الأفراد أو المجتمات في حقبة معينة من التاريخ. أو هي مجموعة موروثة من الأفكار والمعايير التي تحدد الأساليب التي على منوالها تُرتّب الأشياء وتُصرف الشؤون المختلفة عند الجماعة، أو هي مجمل الطرق أو الوسائل التي يستعملها الفرد أو الجماعة لكي تتواءم وتنضبط مع بيئتها الإنسانية والطبيعية. أو هي المعرفة التي تؤخذ عن طريق الأخبار والتلقي والاستنباط بناءً على وجهة نظر معينة في الحياة. أو هي المعارف والعلوم والآداب يتعلمها الناس ويتثقفون بها[35].

يعتبر مالك بن نبي من أكثر المفكرين المسلمين الذين اشتغلوا في حقل الثقافة حيث كتب عدة كتب في المجال الحضاري، وقد عرّف الثقافة بأنها: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أوّلي في الوسط الذي ولد فيه والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته. وهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة والذي يتحرك في إطاره الإنسان المتحضر. فهي الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر. وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعاً للغاية التي رسمها المجتمع لنفسه ؛ فالثقافة هي تلك الكتلة نفسها بما تتضمنه من عادات متجانسه وبعبارة جامعة هي كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة ويحدد قطبيها العقلي والروحي[36].واعتبر ابن نبي أنّ هذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة أي مقومات الإنسان ومقومات المجتمع[37].

---

[35] أنظر

- يوسف نور عوض : المقومات الإسلامية للثقافة العربية ، دار القلم ، بيروت "ب.ت" ص 5.
- سميح عاطف الزين : الثقافة والثقافة الإسلامية ، ص 31 – 35 نقلاً عن : د. عبد القادر هاشم.
- رمزي : النظرية الإسلامية في فلسفة الدراسات الاجتماعية والتربوية ، ط1 ، دار الثقافة ، الدوحة 1984م ، ص 181.
- د. علي عثمان مُحَمَّد صالح : منهجية دراسات الثقافات ، دور البيئة والمجتمع والخلفية الحضارية في تشكيلها ، بحث منشور ضمن أوراق مؤتمر المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية ، ج2 ، تحرير الطيب زين العابدين ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط1، هيرندن، أمريكا 1992م ، ص 407 وما بعده.
- سلامة موسى : الثقافة والحضارة ، مجلة الهلال، القاهرة ، ديسمبر 1927م، ص 171، نقلاً عن : نصر مُحَمَّد عارف ، مصدر سابق ، ص 27.
- مالك بن نبي : تأملات ، ط5، دار الفكر ، دمشق 1991م ، ص 141 – 152.
- مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ، ترجمه عبد الصبور شاهين ، ط4 ، دار الفكر دمشق 1984م ، ص 19 – 27.

[36] ابن نبي : شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، ط3 ، دار الفكر دمشق 1969م ، ص 125 – 130.

[37] ابن نبي : مشكلة الثقافة ، ص 74. وراجع عرضاً موسعاً لنظرية الثقافة عند مالك بن نبي في : زكي الميلاد : المسألة الثقافية ، ص 37 – 67 ،

وكما يرى زكي الميلاد فإنّ هذا التعريف يتصف بعمومية شديدة ويفتقد إلى الضبط الدقيق والتحديد الصارم وإن كان من التعاريف المعتبرة[38] ويتكون هذا التعريف – حسب الميلاد – من العناصر التالية:

أولاً: مجموعة من الصفات الخلقية حيث يعتقد ابن نبي أنّ أساس كل ثقافة هو تركيب وتأليف لعالم الأشخاص وفق منهج تربوي يأخذ صورة فلسفة أخلاقية.

ثانياً: والقيم الاجتماعية حيث يعتقد ابن نبي أن عالم الأشخاص لا يمكن أن يكون ذا نشاط اجتماعي فعّال إلا إذا نُظم وتحول إلى تركيب والفرد المنعزل حسب رأيه لا يمكن أن يستقبل الثقافة ولا أن يرسل إشعاعها.

ثالثاً: التي تؤثر في الفرد منذ ولادته حيث يذهب ابن نبي إلى أنّ الفرد منذ ولادته يكون غارقاً في عالم الأفكار والأشخاص والأشياء التي يعيش معها في حوار دائم وهي التي تكوّن اطاره الثقافي الذي يخاطب كل تفصيل .

رابعاً: وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه حيث إنّ مقاييسنا الذاتية هي التي تحدّد سلوكنا الاجتماعي في عمومه كما تحدد موقعنا أمام المشكلات قبل أن تتدخل عقولنا[39].

إن كان مالك بن نبي من أميز من كتبوا في الثقافة دراسات تعتبر الأكثر خبرة ونضجاً وتماسكاً في العالم الإسلامي فإنّ هذا الرصيد العلمي الذي أنجزه هو وليد احتكاكه وخبرته بالثقافة الغربية، وهناك من المفكرين المسلمين من وُلد في حضن تلك الثقافة وتشبع بها وحاول الخروج برؤية إسلامية للثقافة فعلى سبيل المثال فإنّ دراسات علي عزت بيجوفيتش حاولت تأصيل هذا الموضوع منطلقاً من موقف فلسفي له علاقة بطبيعة الرؤية إلى الإنسان والدين والحياة والكون في تحديد تصور كُلي ونهائي لكل من الثقافة والحضارة لكي يقطع بينهما قطعاً نهائياً وجازماً[40] .

إنّ الثقافة عند بيجوفيتش تبدأ بالتمهيد السماوي بما اشتمل عليه من دين وفن وأخلاق وفلسفة ، فالثقافة تعني بعلاقة الإنسان بتلك السماء التي هبط منها وكل شئ في إطار الثقافة إما تأكيد أو رفض أو شك أو تأمل في ذكريات ذلك الأصل السماوي للإنسان فالثقافة تتميز بهذا اللغز وتستمر هكذا خلال الزمن في نضال مستمر لحل هذا اللغز[41] .

---

[38] المسألة الثقافية ، ص 62

[39] الميلاد : المسألة الثقافية ، ص 60 – 61.

[40] الميلاد : المسألة الثقافية ، ص 74.

[41] علي عزت بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب ، ترجمة مُحَمَّد يوسف عدس، ط1 ، مؤسسة العلم لحديث ، بيروت 1994م ، ص 94. ولاحظ التقارب بين مفهوم الثقافة عند بيجوفيتش ومفهوم الحضارة عند بن نبي في شروط النهضة فهما متشابهان رغم اختلاف المفهومين.

والثقافة – عند بيجوفيتش – هي تأثير الدّين على الإنسان أو تأثير الإنسان على نفسه بينما الحضارة هي تأثير الذكاء على الطبيعة أو العالم الخارجي ، والثقافة معناها " الفن الذي يكون به الإنسان إنساناً" أما الحضارة فتعني "فن العمل والسيطرة وصناعة الأشياء صناعة دقيقة" ، الثقافة هي: "الخلق المستمر للذات" ، أما الحضارة فهي "التغيير المستمر للعالم" ، وهذا تضاد الإنسان والشئ، الإنسانيه والشيئية، الحضارة هي استمرار التقدُم التقني لا الرؤحي ، أما الثقافة فهي الشُعور الأبدي بالاختيار والتعبير عن حرية الإنسان ، الحضارة تعزّز التبادل المادي بين الإنسان والطبيعة ، وتغري الإنسان بالحياة البرانية على حساب حياته الجوانية ، أما الثقافة فتميل إلى التقليل من احتياجات الإنسان أو الحد من إشباعها وبهذه الطريقة توسع في آفاق الحرية الجوانية للإنسان[42].

ويذكر بيجوفيتش أنّ "التناقض بين الثقافة والحضارة يقوم في الواقع على تعارض أساس بين الضمير والعقل... بين الوجود والطبيعة ، أو على المستوى العملي بين الدين والعلم... كل ثقافة مؤمنة في جوهرها وكل حضارة ملحدة"[43]... وهكذا فإنّ بيجوفيتش جعل الثقافة في حالة عداء مع الحضارة ونقد مستمر لها غير أنه يذكر "إنّ نقد الحضارة ليس دعوة لرفضها فالحضارة لا يمكن رفضها حتى لو رغبنا في ذلك ، إنما الشئ الوحيد الضروري والممكن هو أن نحطم الأسطورة التي تحيط بها فإنّ تحطيم هذه الأسطورة سيؤدي إلى مزيد من أنسنة هذا العالم وهي مهمة تنتهي بطبيعتها إلى الثقافة[44].

لقد خاض بيجوفيتش في ذات الصراع الذي خاض فيه الفرنسيون والألمان حول ماهية الثقافة ، وجاءت نتائج دراسته للثقافة متوافقة مع الفكرة الالمانية عنها ... كما نلاحظ الربط الوثيق بين الدين والثقافة عند بيجوفيتش وهو في هذا ينحو منحى توماس إليوت في ربطه بين الدين الثقافة حيث يمكن استنباط مكونات العلاقة بين الدين والثقافة عند إليوت وإجمالها في الآتي:-

1- كل ثقافة ظهرت بجانب دين.
2- خطأ الانفصال وخطأ المطابقة بين الثقافة والدين.
3- يكون التطابق الكلي بين الثقافة والدّين في المجتمعات البدائية.
4- وحدة وتبادل التأثير بين الثقافات المتعدّدة.
5- إنّ تكوين دين هو تكوين ثقافة أيضاً.
6- الدّين قوة رئيسية في خلق ثقافة مشتركة بين شعوب متعدّدة الثقافات[45].

أما عن علاقة الثقافة والدين في المنظور الإسلامي فإنّ للإسلام تجربة في الحضارة والتمدن تبلورت فيها هذه العلاقة وتنامت . والحديث عن هذه العلاقة لا يكتمل إذا لم تدرس في إطار الإسلام

---

[42] بيجو فيتش : الإسلام بين الشرق والغرب ، ص 94 – 96.
[43] نفس المصدر ، ص 40.
[44] بيجوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب ، ص 133.
[45] توماس إليوت : ملاحظات حول تعريف الثقافة ، ترجمة شكري عياد ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 2001م ، ص 21 – 47 ، 173 – 174 . وراجع مكونات نظرية الثقافة عند إليوت في : الميلاد : المسألة الثقافية ، ص 99 – 116.

ومعارفه وخبراته ، فالإسلام صنع ثقافة جديدة عدّت من الثقافات الإنسانية العالمية الكبرى ، والدّين هو الذي صنع الثقافة ، واتحدت العلاقة بينهما مع نزول أول آية "أقرأ" والدّين ليس بديلاً عن الثقافة[46] .

[46] الميلاد : المسألة الثقافية ، ص 117

الخاتمة:

إنّ من الصعب تصور ثقافة مجردة ومحايدة أي لا ترتبط بخلفيات تاريخية أو مذهب عقائدي أو ايديولوجيا لها فلسفتها في الوجود تقيم عليها تصوراتها . وهذا الجانب التصوري – أي المرجعية الدينية – ينبغي الانتباه له في كل تعريف للمفهوم يتوافق عليه المشتغلون بعلم من العلوم وحيث أن للثقافة تعاريف كثيرة فإنّ في الإمكان الاستفادة منها جميعاً.

إنّ الثقافة قد نمت – كمفهوم – في ظل العلوم الاجتماعية أو الانثربولوجيا بمعنى أدق ومن ثمّ قام فلاسفة العلوم باستلهام تعريفات الانثربولوجيين للثقافة وبنوا عليها معارفهم. لذلك شاع هذا المفهوم في العلوم الغربية ، كما أن الصراع بين الفرنسيين والألمان في تحديد هذا المفهوم قد ساهم إلى حد بعيد في نموه وتطوره لدى الغربيين.

أما في الجانب الإسلامي فإنّ الثقافة لم تخرج من اطارها اللغُوي ودلالته وتتجذر في الفكر الإسلامي كمفهوم له محتواه ، هذا مع اعتقادنا الراسخ أن المحتوى المعرفي لمفهوم الثقافة الغربي كما هو الآن قد جرى تشغيله في العلوم الإسلامية قديماً دون أنْ يسمى ثقافة ذلك أنّ علماء السلف المسلمين كانوا فيما يكتبون إنما يكتبون علوماً – حسب تصورهم – وإن كان قد جرى تصنيف العلوم فيما بعد بداية بالإمام الغزالي إلى علوم دين ودنيا وشريفة ووضيعة وممدوحه ومذمومة ليتحدّد الفرق بين ما هو "علم" وما هو "ثقافة" يتثقف بها الناس.

المراجع

المراجع العربية:

1- **أنور عبد الملك** : تاريخ الشرق، ط1، دار المستقبل العربي ، القاهرة 1983م.

2- توماس اليوت : ملاحظات حول تعريف الثقافة ، ترجمة شكري عياد ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 2001م.

3- **تيري إيجلتون** : فكرة الثقافة ، ترجمة ثائر ديب ، دار الحوار ، اللاذقية 2000م .

4- **دنيس كوش** : مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، ترجمة د. منير السعداني ، المنظمة العربية للترجمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، مارس 2007م.

5- **رالف لنتون** : الانثربولوجيا وأزمة العالم الحديث ، ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية ، بيروت 1967م .

6- - **رالف لنتون** : الأصول الحضارية للشخصية ، ترجمة عبد الحميد اللبان ، دار اليقظة العربية ، بيروت ، 1964م.

7- **زكي الميلاد** : المسألة الثقافية ... من أجل بناء نظرية في الثقافة ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، الدار البيضاء ، المغرب 2005م.

8- **سلامة موسى** : الثقافة والحضارة ، مجلة الهلال، القاهرة ديسمبر 1927م.

9- **الطيب زين العابدين**: مؤتمر المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية ، ج2 ، تحرير الطيب زين العابدين ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط1، هيرندن، أمريكا 1992م.

10- عبد الوهاب المسيري : التحيُّز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد" تحرير د. عبد الوهاب المسيري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،ط2، امريكا 1996م .

11- **د. عبد القادر هاشم رمزي** : النظرية الإسلامية في فلسفة الدراسات الاجتماعية والتربوية ، ط1 ، دار الثقافة ، الدوحة 1984م.

12- **علوي الصافي** : تعريف الثقافه ومفهومها ، مجلة الفيصل العدد 143، السعودية ، الرياض ، ديسمبر 1989م.

13- **علي عزت بيجوفيتش** : الإسلام بين الشرق والغرب ، ترجمة محمد يوسف عدس، ط1 ، مؤسسة العلم لحديث ، بيروت 1994م.

14- **فضل الله محمد اسماعيل** : الايديولوجيا وفلسفة الحضارة ، ط1 ، مكتبة بستان المعرفة ، مصر 2005م.

15- **قسطنطين زريق :** في معركة الحضارة ، ط1، دار العلم للملايين، بيروت 1964م.

16- **كلايد كلوكلهون** : الإنسان في المرآة ، علاقة الانثروبولوجي بالحياة المعاصرة ، ترجمة د. شاكر مصطفى ، المكتبة الأهلية ، بغداد 1964م.

17- **مالك بن نبي** : تأملات ، ط5، دار الفكر ، دمشق 1991م.

18- **مالك بن نبي** : مشكلة الثقافة ، ترجمه عبد الصبور شاهين ، ط4 ، دار الفكر دمشق 1984م.

19- **مالك ابن نبي** : شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، ط3 ، دار الفكر دمشق 1969م.

20- **مجلة التوحيد** العدد 86 ، السنة (15) رمضان 1417هـ "شباط 1997م" مؤسسة الفكر الإسلامي والتوحيد للنشر الثقافي ، طهران ، مقال: الثقافة الإسلامية ، المفهوم والمضمون ، أجزاء من مشروع الاستراتيجية الثقافية الذي أقرته منظمة المؤتمر الإسلامي .

21- **المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون** : الخطة الشاملة للثقافة العربية ، سلسلة المفاهيم ، حزمة رقم (1) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، أمريكا.

22- **يوسف نور عوض** : المقومات الإسلامية للثقافة العربية ، دار القلم ، بيروت "ب.ت".

23- **ميكائيل تومبسون وآخرون** : نظرية الثقافة ، ترجمة د. علي سيد الصاوي ، سلسلة عالم المعرفة (23) ، ط1 ، الكويت يوليو 1997م .

المراجع الانجليزية:

1. **Alfred Louis Kroeber**: **The Nature of Culture**. Chicago, university of Chicago press 1958.
2. **E.B.Tylor**: Primitive Culture, Brentanos, New York 1924.
3. **Gabriel A. Almond and Sidney verba**: The Civic Culture: Political Attitudes and Demo cracy in Five Nation, Princeton university press 1963.
4. **Krobeir and kluckhon**, culture: Acritical of Conception and Definition, Harvard 1952.
5. **Ruth Benedict**, Patterns of Culture,Boston, Houghton Mifflin 1934.
6. R.Bierstedt, The Social order, New York , Mcgraw hill 1963.
7. **Winer, Philip ed**: Dictionary of the History of ideas, Charles Scribners Sons ,New York 1973.